الفصل الثانى
مع حديث النفس المطمئنة

إن من سمات الأدب الإنسانى الخالد صدق التجربة الشعورية وسمو الموضوع وجمال التصوير والتعبير وامتزاج الفكر بالوجدان، حتى كأن الأديب يشعر بعقله ويفكر بقلبه، سواء أكان النص الأدبى شعراً أم نثراً.

– فإذا نظرنا فى (حديث النفس المطمئنة) رأينا تحقق مواصفات الأدب الإنسانى الخالد تمام التحقق، من حيث التجربة الشعورية التى عاشها أديبنا عبد الرحمن على فلاح، من حيث سمو الموضوع وإنسانيته، ومن حيث امتزاج الفكر بالوجدان ومن حيث جمال التصوير والتعبير.

– فكاتبنا أحب الكتاب والكتابة منذ نعومة أظفاره، وأكب على القراءة النافعة ودورس العلم ومجالس العلماء، ينهل من معينها، وطفق يقطف من ثمارها الشهية، فهذب نفسه، وصقل موهبته الأدبية على نهج عميد الفكر العربى عباس محمود العقاد ومن قبله أستاذه العلامة محمد فريد وجدى صاحب (دائرة معارف القرن العشرين) و(المصحف المفسر) وصاحب جريدة (الدستور) ومجلة (الحياة) ولذا أنس صاحبنا إلى القلم وأنس إليه القلم، فكان بين يديه سيالا مطواعا، وانحاز إلى فكر الأمة وحضارتها وحصن ثقافتها الأصيل، يذود البوم والغربان عن دوحة الإسلام وثغوره وبستان النبوة وزهوره، فيما يحرره منذ (إسلاميات) جريدة (أخبار الخليج) الغراء ثم فى قيامه على تحرير (فى رحاب الإسلام) الأسبوعية الغراء وصفحة (مع الصائمين) اليومية الرمضانية الغراء فضلا عن تواصل مع كثير من المجلات والصحف الإسلامية العربية والدولية.

● بَيْدَ أن تجربة كاتبنا فى (حديث النفس المطمئنة) ورسائله إلى أهل البلاء الصابرين المحبين تمثل قفزة نوعية غير مسبوقة فى كتابات أديبنا المرابط، وقد سبقت دراساته ونظراته السابقة مثل:

١ ـ الإسلام والوصاية على الأديان (١٣٩٨ هـ) .

٢ ـ وماذا بعد الانتفاضة (١٤٠٩ هـ) .

٣ ـ الذين يحرثون فى البحر (١٤١١ هـ) .

٤ ـ قوة الإسلام (١٤١٣هـ) وغيرها من كتاباته .

لقد جاءت تجربته فى هذا الكتاب عميقة كل العمق صادقة غاية الصدق، إنسانية عامة، فقد عانى خلالها أشد المعاناة، حيث يتابع مرض وحيده ومعاناة ثمرة حياته وزهرتها، ويعايش تجربة العلاج بمختلف وسائله، ويرى عجز الطب والأطباء، وكأنى به يردد معى قول الشاعر:

قل للطبيب تخطفته يد الردى

يا شافى الأمراض من أرداكا؟!

وها هى ذى زهرة أديبنا تذبل أمام عينيه ويغادر الحبيب وقرة العين هذه الحياة الدنيا ليلقى الخالق الرحيم الحنان المنان، ويستودع العبد مولاه ثمرة فؤاده، ليرتع فى رياض الجنة مع الغلمان المخلدين الذين إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً .

ـ والتجربة برغم أنها ذاتية إلا أن كاتبنا يعرضها عرض الداعية المفكر والأديب الشفاف فجاءت تجربة عامة تجاوز حدود المحلية إلى المشاعر الإنسانية العالمية، وتتابعت نظراته فى سير الرحلة العلاجية حتى نهاية العهد بحبيبنا فلذة كبد الكاتب وولده (عليّ) بدنيا الناس هذه، ليغادر ويسبق إلى دار الخلود فى الفردوس الأعلى ... طيراً أبيض وزهرة جميلة بين أزهار الجنة وطيورها التى تجوب الآفاق جذلانه بين اللدات والخلان، ولذا جاءت رسائله ومقالاته دروسا مربية فى الأدب الشفاف، تأخذ بيد المتلقى إلى رحاب اليقين وبرد الإيمان، وقد تجلت مهارة كاتبنا فى اختيار عناوين مقالته كما نبغ فى النظر والتحليل ودعم تأملاته بالحجج القوية والبيان الجميل الذى يعكس سعة اطلاع الكاتب وتأثره ببلاغة القرآن الكريم وفصاحة النبى العدنان الأمين، ومن ثم جاء إبداعه فيها مؤثراً

ومقنعاً فى آن واحد حيث لامست مضامينه تجارب جميع قرائه تقريبا وطاردت حجب الغفلة والنسيان والانشغال بالدنيا والاغترار بالمال والجاه والسلطان والتعلق بالاسباب عن مسببها وعن يد الله التى هى فوق كل يد والتى هى بإرادة الله تعالى وراء كل حركة أو قضاء يقع فى ملكوت الله، ومَن مِن قراء الكاتب لم يُبتلَ فى عزيز لديه من نفس أو مال أو دين أو ولد ورحم الله أمير الشعراء حين قال:

ولا يُنبيكَ عن خلق الليالى
كمن فقد الأحبة والصحابا

وهذه بعض عناوين الكاتب فى رسائل الحزن الجميل: «كل نفس ذائقة الموت» – «استبداد المشاعر – الحزن المدمر» – «فى الرخاء نعيش مع النعمة – وفى البلاء نعيش مع المنعم» – «نعمة الرضا» – «وأما بنعمة ربك فحدث» – «حين تتوحد المشاعر» – «وداعا عليّ» – «بيت الحمد» «عطاء المحنة» وهى عناوين معبرة، جاءت مصوغة فى بلاغة، تعكس – فى وضوح جلى – تأثر أديبنا، بالقرآن الكريم والحديث الشريف مع حسن الاقتباس والأخذ عن العلماء الصالحين.

● وقد جاء بيان الكاتب عذبا بليغا لا تكلف فيه ولا صنعة فى خياله وتصويره وإنما جاء ذلك فى تلقائية أملاها الصدق الشعورى والإبداع الفنى و(صادق الحبّ يُملى صادق الكلم) كما قال شوقى أمير الشعراء.

– يقول كاتبنا تحت عنوان (حين يستأثر الحق ببعض خلقه!!): «عند المرض تتهاوى الحصون التى يحتمى بها الإنسان ساعة الصحة» ص ٣٦)، ومن تعبيراته الجميلة: «هذه القضية العظيمة المباركة التى تزرع الأمل (حدائق ذات بهجة) فى نفس المؤمن نجد تحقيقًا لها فى سورة الكهف» (ص ٥٢) ويقول فى نفس المقالة (العطاء المبارك): «.. ولا غرو فى ذلك فابن عبد العزيز غصن نديّ ومتميز فى دوحة الحاكم العادل الباهر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه» (ص ٥٥).

– ومن أبدع ما فى هذه الرسائل مقالته فى وداع حبيبنا معًا وثمرة فؤاده (عليّ) حيث يقول فى بيان مؤثر وخلاب معًا: خُلق عليّ لدور محدد، لم نكن ندرك أبعاده أو حقيقته». أنه شفيعنا يوم القيامة، وهو الذى سوف يأخذ بأيدينا لندخل معه الجنة، وهو الذى يثقل ميزاننا يوم القيامة ... إنه طير من طيور الجنة، يتنقل على أشجارها مع إخوانه الذين سبقوه إليها، وحين يأتى موعد اللقاء مع أبويه سوف يكون فى استقبالهما وسوف يفرح بلقائهما، ويفرحان بلقائه» (ص ٦٥).

– واقرأ معى هذا التعبير الجميل وانظر ماذا يصنع الصدق الشعورى فى تصوير الأديب وتعبيره ؟!

يقول الأديب المكلوم: «كان الوالدان يدخران (عليًا) ليوم شيخوختهما عندما يحتاجان إلى من يتوكآن عليه» (ص ٩٦).

– ولكن سرعان ما يعتصم كاتبنا بإيمانه متسربلاً بلباس اليقين، ليقوى منطق العقل المؤمن ويقين النفس المطمئنة فيقول: «حديث النفس هو حديث الإيمان واليقين، وكنت دائمًا أتغلب على شوقى ولهفتى إلى عليّ باليقين الذى لا يدنو منه الشك فى أن عليا يعيش الآن أزهى مراحل عمره وأجمل أيام حياته» (٩٧).

● لقد بَلّغ الله أذانك، فلقى آذنًا صاغية، ولامستْ رسائلك شغاف قلوبٍ واعية فنورتْها وأضاء سِراجها الأبصارِ وارتقيتَ بها – أيها الكاتب المؤمن – مرتقى عاليًا فى دوحة الأدب الإسلامى الشفاف بآفاقه الإنسانية الرحبة.

* * *